مجلة اتحاد الجامعات العربية
العدد السابع عشر
محرم ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م

بحث :

الطب العربـــــي

الدكتور ابراهيم بيومي مدكور

الطب العربى

الدكتور إبراهيم بيومى مدكور

لم يبق اليوم شك فى أن هناك طبًّا عربيا ، عرف بمنهجه وموضوعه ، واشتهر بآرائه ونظرياته . وقام على أمره نفر من كبار الأطباء ، ووضعت فيه بحوث ومؤلفات تعد بين المؤلفات الطبية الهامة فى التاريخ قديمه وحديثه ، واعتبرت ثروة بشرية أفادت منها ثقافات مختلفة . أخذ هذا الطب وأعطى ، أخذ عن طب اليونان ، وعن بعض البحوث الطبية فى فارس والهند ، وأضاف إليها ما أضاف ، وأضحى طبا عربيا خالصا .

ثم أعطى الثقافات المعاصرة له ، من سريانية ، وعبرية ، ولاتينية ، وأفادت منه ما أفادت . عمّر طويلا ، فقد ظهر فى القرن الثامن الميلادى ، وامتد إلى التاريخ المعاصر. درس فى بعض المعاهد الاوربية إلى القرن السابع عشر ، وكان عماد الدراسات الطبية فى بعض المعاهد العربية إلى أخريات القرن الماضى ، ولا يزال يعول عليه حتى الآن فى باكستان . ويلاحظ كامل حسين بحق أنه فيما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر الميلادى ، لم يعرف طب فى العالم إلا الطب العربى .

* * *

وسنتابع هذا الطب فى أصوله ومصادره ، فى نشأته ومراحل نموه ، فى مدارسه وكبار رجاله ، ثم نقف قليلا عند أثره وإفادة الغرب منه .

(أ) أصوله ومصادره

كان للعرب فى جاهليتهم تطبيب ووصفات علاجية اكتسبوها من تجربتهم الخاصة ، أو استمدوها من تجارب جيرانهم . وكان لهم ولوع ببعض الحشائش والعقاقير ، كالشيح والقيصوم . وامتد قدر من هذا إلى صدر الإسلام ، ولم ير المسلمون غضاضة فى أن يفيدوا منه ، وزادت الفتوحات الإسلامية هذه الثروة

التقليدية ، وأضافت إليها تجارب شعوب أخرى . إلا أن هذا كله لا يعد من علم الطب فى شىء ، وما أشبهه بما نسميه «الوصفات البلدية» التى لا تزال تحيا بيننا إلى اليوم . ولم يبدأ البحث الطبى المنظم لدى العرب إلا فى أخريات القرن الأول للهجرة ، ودفعته الحضارة الجديدة على أيدى العباسيين إلى الأمام شيئا فشيئا . فلم ينشأ الطب العربى دفعة واحدة ، بل نما وترعرع على مر الزمن ، وأخذ عن مدرستين طبيتين سابقتين ، هما مدرسة الإسكندرية ، ومدرسة جنديسابور .

١ ـ مدرسة الإسكندرية

ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، وعُمِّرت إلى القرن السابع الميلادى . خلفت مدارس بلاد اليونان ، وربطت الشرق بالغرب ، وكانت ملتقى ثقافات مختلفة . غرس فيها البطالمة من قديم روح البحث العلمى ، برغم ميلهم إلى النعيم والترف . فأنشأوا مكتبتها الكبرى الشهيرة ، ومعهد العلوم (الموسيون) الذى قام على أمره زمنا استراتون الرئيس الثانى للمدرسة المشائية . وفى هذا المعهد درست الهندسة والفلك ، والطب والتشريح . وامتدت هذه الدراسات إلى التاريخ الميلادى ، بل إلى الفتح الإسلامى . ومن الثابت أن خالد بن يزيد الأموى (٧٠٤) حاول أثناء ولايته على مصر فى أخريات القرن السابع الميلادى أن يترجم بعض الكتب الطبية والكيميائية ، وزاد الأخذ عن مدرسة الإسكندرية فى القرنين التاليين .

وطب مدرسة الإسكندرية فى أساسه جالينوسى ، وفيها قام أنقيلاؤس ، وهو زعيم المدرسة الطبية ، بجمع كتب جالينوس فى ستة عشر جزءا ، سميت «المجموعة الجالينوسية» وقد عنى العرب بالبحث عن هذه المجموعة وترجمتها إلى العربية ، واضطلع بذلك خاصة حنين بن اسحق (٨٧٧ م) زعيم المترجمين فى الإسلام . والواقع أن طب جالينوس (٢٠٠ م) ، فى أساسه ، إحياء لطب أبقراط (٤٦٠ ق . م) ، وأخذ بمبادئه ، وشرح وتوضيح له ، وإن اختلف عنه فى بعض القضايا . وأضاف إليه جديدا ، وخاصة فى التشريح . وقد تأثر به الأطباء العرب أكثر مما تأثروا بطب أستاذه الأول . وفى مدرسة الإسكندرية تربى أطباء مشارقة أخذ عنهم العرب ، أمثال سرجيوس الرسعنى أو الرأس عينى (٦٩٤ م) . وغذت تعاليمها

بعض المدارس الدينية الشرقية القديمة فى الرها ، ونصيبين ، وإنطاكية.
فغذى طب الإسكندرية الطب العربى بأوفى نصيب.

٢ ـ جنديســـابور

هى تلك المدينة الفارسية التى أسسها سابور الأول (٢٧٢ م) ، وأسكن فيها أسراه من بعض الشعوب اليونانية. وازدهرت فيها مدرسة طبية منذ القرن الخامس الميلادى أيام كسرى أنوشروان. وجمع طبها بين التجارب الهندية الفارسية والنظريات ليونانية ، فأفادت من البحث النظرى والدراسة العملية فى مستشفاها الكبير. وامتدت إليها الفتوحات الإسلامية على أيدى أبى موسى الأشعرى (٦٥٧ م) فى عهد عمر بن الخطاب (٦٤٤ م). ويظهر أن أمرها لم يخف على العرب قبل الإسلام ، فقصدها بعضهم ، وتعلم الطب فيها ، وأخصهم الحارث بن كلده (٦٧٠) الذى يمكن أن يعد طبيب الإسلام الأول ، ويقال إن النبى (ﷺ) كان يأمر من به علة أن يذهب إليه ويتطبب عنده.

ولكن شأن مدرسة جنديسابور الطبية لم يذع ولم يعل إلا فى صدر الدولة العباسية ، وعلى أيدى الخليفة المنصور (٧٧٥ م) بوجه خاص ، وقد استدعى جرجيس بن بختيشوع (٧٧٠ م) رئيسها وشيخ أطبائها. وقدر له ولأبنائه وأحفاده من بعده أن يقضوا نحو قرنين فى حظوة لدى الخلفاء والأمراء العباسيين ، فكان منهم الوزراء ، وأطباء البلاط ، والمشرفون على المستشفيات ، وأساتذة الطب والمترجمون. وعلى رأسهم جبريل بن بختيشوع (٨٣٠ م) ، وقد نال حظوة كبرى لدى الرشيد (٨٠٣ م) الذى قال لأصحابه يوما : «من كانت له حاجة ، فليخاطب فيها جبريل ، لأنى أفعل كل ما يطلبه» وانضم إلى آل بختيشوع أطباء آخرون من جنديسابور ، وفى مقدمتهم يوحنا بن ماسويه (٨٥٧ م) رئيس بيت الحكمة ، ومدير مستشفى بغداد فى عهد المأمون ، وأستاذ حنين بن اسحق. **فوضعت جنديسابور اللبنة الأولى فى بنيان الطب العربى ، وأتمت الإسكندرية هذا البنيان وشيدته.**

(ب) نشـــأته ونمـــوه

مر الطب العربى بمراحل ثلاث ، أسلمت كل واحدة منها إلى الأخرى ، وهى على التوالى : مرحلة النشأة والتكوين ومرحلة الشرح والتلخيص ، ومرحلة التحليل والتجربة

١ ـ مرحلـة النشـــأة والتكويـن

هى مرحلة الرواد والمترجمين ، بدأت فى أوائل القرن الثامن الميلادى ، وامتدت إلى القرن التاسع . دعا إليها المنصور ، وعززها الرشيد والمأمون . بدأت فى بغداد ثم لم تلبث أن أرسلت أضواءها على بعض المدن الأخرى . أخذت عن الثقافات السابقة ، وعولت بخاصة على الثقافة اليونانية . ولقد عنى العرب بجمع أصولها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، فبعثوا فى طلبها البعوث إلى القسطنطينية والإسكندرية ، ولم يفتهم أن يبحثوا عنها فى أماكن أخرى . ونظموا حلقات ومدارس للترجمة ، وأهمها مدرسة حنين بن اسحق التى تخصصت أو كادت فى ترجمة الكتب الطبية . وتشهد هذه الحركة بتسامح لا نظير له فى ثقافة أخرى قديمة أو حديثة . فاشترك فيها النصارى من نساطرة ويعاقبة ، واليهود والصابئة ، إلى جانب المسلمين . وبرهنوا على أن العلم لا وطن له ، وأن طلبه لا يتعارض مع ملة أو دين . واستمدوا مترجميهم من أماكن مختلفة ، من جنديسابور كجبريل بن بختيشوع ، أو من الحيرة كحنين بن اسحق ، وابنه اسحق (٩١١ م) ، أو من حران كثابت بن قرة (٩٠١ م) .

أسهم هؤلاء جميعا فى ترجمة الكتب الطبية ، إلى جانب آخرين ، أمثال : يوحنا بن ماسويه ، وحبيش بن الأعسم الدمشقى (القرن التاسع م) ، وعيسى ابن يحيى بن ابراهيم (٨٣٠ م) ، وقسطا بن لوقا البعلبكى (٩١٢ م) . ترجموا عن الفارسية والهندية ، أو عن السريانية التى كانت لغة العلم فى المدارس الدينية الشرقية قبل الإسلام ، وقد ترجم إليها قدر من الأصول اليونانية . وفى عصر المأمون حاول العرب أن يتداركوا ما فات السريان ، فصححوا أخطاء الترجمات القديمة ، وعولوا على الأصول اليونانية ، وترجموا منها مباشرة إلى العربية . عرفوا كثيرين من أطباء اليونان ، وعنوا خاصة بأبقراط ، وجالينوس . فترجموا للأول «العهد» المعروف ، «وكتاب الفصول» ، «وكتاب الأخلاط» ، «وكتاب الماء والهواء» ، وربما نسبوا إلى

أبقراط ماليس من صنعه . وحرصوا على أن يترجموا مع هذه النصوص شروح جالينوس لها ، وتعليقه عليها . وقد تخصص حنين بن اسحق فى مؤلفات جالينوس . جد فى جمعها وألف أسلوبها بحيث استطاع أن يحكم على النص إذا كان بقلم جالينوس أو منحولا . وجند حوله تلاميذ وأتباعا لمعاونته فى ترجمتها ، وجوَّد ذلك ما وسعه . ومن أهم ما نقل منها إلى العربية : «المجموعة الجالينوسية» ذات الستة عشر جزءا ، و «التشريح الكبير» . «وكتاب الأدوية المفردة» ، «وكتاب تركيب الأدوية» ولم يسلم جالينوس ، هو الآخر ، من كتب منحولة تعزى اليه .

وبهذا فتحت الترجمة على العرب أبواب الثقافات الكبرى ، وربطت الماضى بالحاضر . وعززت نهضة علمية نشيطة .

٢ ـ مرحلـــة التلخيص والشـــرح

وهى امتداد للمرحلة السابقة ، وتبدو واضحة فى القرن التاسع الميلادى . وقد اضطلع بها فى الأغلب المترجمون أنفسهم ، فلم يقنعوا بترجمة النصوص القديمة . بل لخصوها أو علقوا عليها . وراقهم لون خاص من التأليف سموه «مدخلا» فى الطب أو الكيمياء ، وكأنما حاكوا فى ذلك مدخل فورفوريوس الصورى فى المنطق (ايساغوجى) ، ووضعوا كتبا مجملة ، مثل : «كتاب الأغذية» ليوحنا بن ما سويه ، و «كتاب عشر مقالات فى العين» لحنين بن اسحق ، و «كتاب فردوس الحكمة» لعلى ابن رين الطبرى (القرن العاشر م) الذى جمع بين الطب اليونانى والطب الهندى . وإذا عرفنا أن عليا هذا كان أستاذا لأبى بكر الرازى (٩٣٢ م) أدركنا كيف مهدت هذه المرحلة للمرحلة الثالثة والأخيرة .

ومما يلفت النظر فى هذه المرحلة التى نحن بصددها انتشار المستشفيات أو البيمارستانات كما كانت تسمى ، وهذه التسمية نفسها تدل على أصل الفكرة . فالمستشفيات العربية محاكاة للبيمارستانات الفارسية ، وبخاصة بيمارستان جنديسابور الذى كان يديره جرجيس بن بختيشوع قبل انتقاله إلى بغداد . وقد تبارى الخلفاء والأمراء فى إقامة هذه المستشفيات ورعايتها ، وانتشرت فى العواصم الكبرى . كالرى . وبغداد . والقاهرة ، وتونس . ومن بينها البيمارستان المنصورى بالقاهرة الذى

سمى أيضا بيمارَستان قلاوون ، ولا تزال بعض آثاره باقية . وفى كل مستشفى أجنحة للرجال ، وأخرى للنساء ، والمرضى أنفسهم موزعون على حسب مرضهم فى أقسام خاصة فى الجراحة ، أو للأمراض الباطنية . وفى المستشفى أماكن لإعداد الطعام ، وأخرى لتركيب الدواء . وعرف الأطباء العرب نظام المرور على المرضى وتفقد أحوالهم ، كما عرفوا نظام المناوبة الذى يضطلع فيه كل طبيب بنوبة محددة ، وعرفوا أخيرا الاجتماعات العلمية (كونصلتو) لدراسة حالات مرضية معينة . ولم يغفلوا أمر التمريض ، وأسهمت فيه المرأة بنصيب ، وتولت على وجه الخصوص تمريض بنات جنسها . ويشير ابن أبى أصيبعة إلى شىء أشبه ما يكون بالعيادات الخارجية ، ويتحدث المؤرخون عن بعض المستشفيات المتنقلة فى الأسفار والحروب .

وصاحب هذا إقبال الطلاب على تعلم الطب إقبالا ملحوظا . وأفسح لهم المجال فى هذه المستشفيات التى كانت ميدانا واسعًا للمارسة والتجربة ، ونظم هذا التعليم ووضعت له قيود وشروط واضحة ، فلا يقبل فيه إلا من هم أهل له ، ومكنوا من الدرس والبحث تحت إشراف متصل . ولا يسمح لهم بمزاولة الطب إلا إن ثبتت كفايتهم ، وحصلوا على إجازة من المشرفين عليهم . وما أشبه هذه البيمارَستانات بمستشفياتنا الجامعية ، وقد تخرج فيها أعداد كبيرة ، ويكفى أن نشير إلى أن بغداد وحدها كان فيها نحو ٨٠٠ طبيب فى أوائل القرن العاشر الميلادى .

فسبقت البيمارستانات الإسلامية فى نظمها وإدارتها ، فى أقسامها وتخصصاتها ، فى دروسها العملية وتجاربها ، المستشفيات الحديثة بعدة قرون . وأعجب بها الغرب منذ عهد بعيد فى السلم والحرب ، وسعى إليها فى الأندلس لكى يحظى بما فيها من طب وعلاج .

٣ ـ مرحلة الأصالة والابتكار

هى فعلا مرحلة النقد والتمحيص ، والبحث والتجربة ، والكشف والاختراع ، هى مرحلة الطب العربى فى صورته الكاملة ، وقد سميت بحق العصر الذهبى للطب العربى . بدأت فى القرن العاشر الميلادى ، واستمرت إلى نهاية القرن الثانى عشر . ظهر فيها أطباء أعلام ، منهم موسوعيون أحاطوا بالطب فى جوانبه المختلفة ، ومنهم

متخصصون فى بعض الفروع كالجراحة وطب العيون . نقدوا كبار أطباء اليونان ، وأكملوا ما فاتهم وأصلحوا أخطاءهم . بحثوا وجربوا ، فكشفوا عن الجديد والمبتكر فى ميدان التشخيص والعلاج . ووضعوا كتبا ومؤلفات استرعت الأنظار ، وعدت حلقة هامة من حلقات الفكر الطبى فى التاريخ .

ومتى بلغت حضارة أوجها ، أخذت تتراجع شيئا فشيئا ، ولم تضف القرون الستة التالية للقرن الثانى عشر الميلادى إلى الطب العربى شيئا يذكر ، اللهم إلا اكتشاف الدورة الدموية الصغرى .

(جـ) مشـــاهيره وأعـــلامه

لسنا فى حاجة أن نشير إلى أن المسلمين عرضوا لفروع الطب المختلفة ، فوقفوا طويلا عند الأمراض الباطنية والجهاز الهضمى ، والجهاز التنفسى ، وأمراض القلب ، والجهاز العصبى . وشغلوا بالجراحة والتشريح ، وأمراض النساء ، وأمراض الفم والأسنان ، وعنوا بأمراض العين عناية فائقة ، ونبغ فى كثير من هذه الفروع أئمة أعلام . والطب عند العرب مربوط بالصيدلة برباط وثيق ، وما أجدر الصيدلة العربية أن يوقف عليها بحث خاص . وأكتفى بأن أشير إلى أن لهم فى العقاقير والأقرباذين باعا طويلا . و «مفردات ابن البيطار» (١٢٤٨ م) وحدها تشمل نحو ألف وأربعمائة نوع ، ولم يسبقه أحد إلى وصف ثلثمائة منها ، وقد ترجم الكتاب كله إلى اللاتينية وأفاد منه العالم الغربى .

ولا سبيل لأن نقف هنا عند كبار أطباء الإسلام جميعا ، ونكتفى بأن نعرض لبعض مشاهيرهم ، وبخاصة من امتدت آثارهم إلى الحضارة الغربية ، وراعينا فى عرضهم التدرج الزمنى .

١ ـ أبو بكر الرزاى (٩٣٢ م)

طبيب وفيلسوف ، وهو دون نزاع طبيب الإسلام الأول ، وجالينوس العرب كما سمى . جمع بين العلم والعمل ، بين النظرية والتطبيق . درس الطب اليونانى دراسة وافية ، ووقف من الفاضلين أبقراط وجالينوس موقف التأييد تارة والمعارضة تارة أخرى ، أخذ عنهما واستدرك عليهما . وكان يعيب على أبقراط إيجازه وغموضه .

وعلى جالينوس إطنابه وإسهابه ، وهو بلا شك فى مستواهما إن لم يزد عليهما . أدار مستشفين كبيرين فى الرى وبغداد زمنا طويلا ، شخص فيهما أدواء كثيرة ، ووصف لها دواءها ، وقام بتجارب تجل عن الحصر . لاءم بين طب القياس وطب التجربة . ورسم منهجا واضحا فى تشخيص الداء ، يستقصى فيه أعراض المرض ، أو «العلامات» كما يسميها ، ويرتب هذه العلاقات بحسب اهميتها ويقارن بعضها ببعض . وهو دون نزاع من أعلام الطب الإكلينيكى فى التاريخ . وفى كتابه «الحاوى» خير شاهد على ذلك ، ويقع فى اثنين وعشرين جزءا ، ويشتمل على مئات من مشاهدات وتجارب لا تخلو من دقة وطرافة ، وقد ترجم إلى اللاتينية منذ عهد مبكر ، وله كتاب آخر أوضح ترتيبا وأيسر تناولا ، وهو كتاب «المنصورى» الذى ترجم كذلك إلى اللاتينية . ووضع كتابا ثالثا باسم «الفصوص» ، محاكاة لأبقراط وجالينوس ، وعده مدخلا للصناعة وطريقا للمتعلمين . وليس الرازى الأستاذ بأقل شأنا من الرازى الطبيب فقد علم وربى ، وناقش واختبر ، وخرج جيلا من الأطباء المهرة ، وعرض فى كتابه «محنة الطبيب» لدقة المهنة وعظم مسئولية الأطباء .

ولن نقف هنا عند الرازى الفيلسوف الذى شغل المستشرقين أكثر مما شغلهم الرازى الطبيب ، ورحم الله كامل حسين الذى عرف له قدره بين الأطباء العالميين ، وكشف عن كثير من جوانبه ، وكم نأمل أن يتابع شباب الأطباء المسيرة وأن يحيوا تراث هذا الطبيب العظيم .

٢ – على بن عباس (٩٨٣ م)

ذرادشتى اعتنق الإسلام ، ولد فى الأهواز ، وأولع بدراسة الطب ، وتتلمذ للرازى ، وكان أشهر تلاميذه . عاش فى حاشية بنى بويه زمنا ، وصنف لعضد الدولة كتابا فى الطب سماه «الملكى» الذى عرفته اللاتينية ، ولعله أول ما ترجم إليها من كتب الطب العربى على أيدى قسطنطين الافريقى فى أوائل القرن الحادى عشر بعد موت مؤلفه بقليل .

الشهيرة التى قام ابن رشد (١١٩٨ م) بشرحها والتعليق عليها . وفى كتاب « القانون
استيعاب ودقة . وترتيب ووضوح ، وصادف فى الشرق والغرب نجاحا لم يصادف
كتاب طبى آخر .

ترجم إلى اللاتينية منذ عهد مبكر ، وبقى يدرس فى جامعات أوربا نحو س قرون ، من القرن الثانى عشر إلى السابع عشر . وأعيد طبعه باللاتينية غير مرة ويقال إنه طبع فى القرن السادس عشر وحده عشرين مرة .

٥ ـ ابـن زهـــر (١١٦٢ م)

وليد أسرة أندلسية اشتهرت بالطب فى أجيال متلاحقة ، وأبو مروان أشه أفرادها . عاصر ابن رشد وصادقه ، ووضع كتاب « التيسير فى المداواة والتدبير » . عرض فيه لبعض الأدواء كالتهاب الأذن الوسطى ، وشلل البلعوم ، ووصف عمل استخراج الحصى من الكلى . وعملية فتح القصبة الهوائية . اعتبر التجربة خير مرشد . وعده معاصروه أقرب الأطباء العرب من أبقراط فى تفكيره .

ترجم كتابه الى اللاتينية بعد موته بنحو ١٨سنة . وأثر فى الطب اللاتينى تأثير ملحوظا .

٦ ـ ابـن النفيـــس (١٢٨٨ م)

زميل ابن أبى أصيبعة مؤرخ الطب العربى . ورئيس أطباء مصر فى القرن السابع الهجرى ، ومع ذلك بقى مغمورا عدة قرون . ولم يكشف عنه إلا فى آخر الربع الأول من هذا القرن ، حين اهتدى فى مكتبة برلين إلى مخطوط من أهم مؤلفاته الطبية . وهو « موجز القانون » . وقد أسهم الدكتور بول غليونجى فى هذا الكشف إسهاما واضحا ، ودفع شكوكا لا أساس لها حامت حول طبيبنا . فرد على الشبهة القائلة بأن ابن أبى أصيبعة أهمله ، وشرح فى وضوح الدورة الدموية الصغرى التى اهتدى إليها . والواقع أن ابن النفيس أولع بالتشريح برغم معارضة بعض رجال الدين له . ونوه بما حققه جالينوس وابن سينا فى هذا المضمار ، وخرج على ما قالا به . وفسر الدورة الدموية تفسيرا لم يسبق إليه . فكان أول من فطن إلى وجود أوعية دموية داخل

عضلة القلب . وقال إن الدم يمر فى مسام دقيقة هى بمثابة الأوعية الشعرية ، ومهد بذلك لدورة هارڤى الكبرى .

ومن الثابت أن كتاب « موجز القانون » الذى شرحت فيه فكرة الدورة الدموية الصغرى قد ترجم إلى اللاتينية سنة ١٥٤٧ م ، وأن متأخرى البادويين عرضوا لهذه الدورة . ومن الثابت أيضا أن هارڤى (١٦٥٧ م) تتلمذ لهم ، ومن الجائز أن يكون قد وقف على شىء مما قال به ابن النفيس . ومهما يكن من أمر فإن كتابه « موجز القانون » قد وجد فى آخر المطاف طريقه إلى اللغة اللاتينية .

* * *

هؤلاء هم مشاهير أطباء العربية ، وقد ذاع صيتهم فى اللاتينية بدرجة لا تقل عما عرفوا به فى العربية ، ولا يزال تراثهم مهملا بيننا ، وما أجدرنا أن نحييه ، وأن نكشف عن هذه الكنوز الدفينة . وأذكر أنه طلب إلى منذ ثلاثين سنة أن أشرف على إخراج « كتاب القانون » لابن سينا إخراجا علميا دقيقا ، وآسف أنى لم أوفق لذلك .

(د) أثــره وموقف الغرب منــه

استلفت العلم العربى ، والطب بخاصة ، أنظار الأوربيين منذ القرن الحادى عشر . وقفوا على كثير من ثماره فى السلم والحرب ، فعرفوه سلما عن قرب فى صقلية والأندلس ، ولم يترددوا فى أن يعرضوا مرضاهم على أطباء العرب ، وأن يسعوا إليهم . وقضت الحروب الصليبية عليهم بأن يستعينوا بهؤلاء الأطباء ، ومن أمراء الصليبيين من اتخذ له من العرب طبيبا خاصا . وأدركوا أن العلم قوة ، فحاولوا أن يتسلحوا به ، وأن يفيدوا منه ما استطاعوا .

واتجهوا إلى ترجمة المراجع العلمية العربية منذ عهد مبكر ، وتوافرت لديهم منها ثروة يعتد بها . ولا يكاد يوجد مؤلف علمى عربى هام إلا ونقلوه إلى لغتهم ، ومن بين ما نقلوه ما فقدنا أصله العربى ، ولم يبق منه إلا الترجمة اللاتينية ، وسبق لنا أن أشرنا إلى بعض مترجماتهم الطبية . ولا تزال حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية إبان القرون الوسطى فى حاجة إلى درس أشمل وأكمل . وقد يترجم النص الواحد أكثر من مرة ، تبعا لاختلاف المترجمين ، أو رغبة فى التجويد والإتقان ، وعن طريق

هذه الترجمة سرت ألفاظ عربية إلى اللغة اللاتينية . وإذا كانت ترجمة قسطنطين الأفريقي (١٠٨٧ م) في القرن الحادي عشر لم تكن دقيقة ولا وافية ، فقد تلتها ترجمات أخرى أدق وأكمل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وعنيت بها هيئات متعددة في نابلي وبسالرم بايطاليا ، أو في بلرم بصقلية أو في طليطلة بالأندلس . وأنشئت معاهد لتعلم العربية واليونانية ، وأسست في طليطلة مدرسة لتعلم العربية والعبرية ، وتخرج فيها ريمون مارتان الدومنكاني (ق ١٣ م) الذي كان على اتصال بالقديس توما الأكويني (١٢٧٤ م) . وبعد هذا بقليل استطاع ريمون لول (١٣١٦ م) أن يقرر تخصيص كرسي للغات الأجنبية في الجامعات الأوربية .

وطليطلة وبلرم أكبر مركزين للترجمة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ففي طليطلة جمع كثير من المراجع العربية ، وكان بيع المخطوطات في ذلك العهد تجارة رائجة . وأعان على ذلك ألفونس الحكيم ملك قشتالة (١٢٨٤ م) الذي كان نصيرا للعلم والفلسفة ، وكان يريد بالقشتالية أن تصبح لغة عالمية . فنظمت جماعات للترجمة ، وعلى رأس كل جماعة مراجع أو مراجعون . وقد مر بطليطلة أغلب المشتغلين بالترجمة ، وعلى رأسهم جيرار الكريموني (١١٨٧ م) ، ذلك الإيطالي الذي اجتذبته الترجمة ، فقصد طليطلة ، وعني خاصة بالمراجع الطبية ، وترجم منها فيما يقال — نحو ٨٧ مؤلفا ، ولعله كان يشرف على نشاط جماعي يعاونه فيه آخرون .

وفي بلرم نشطت حركة الترجمة في القرن الثالث عشر تحت رعاية الإمبراطور فردريك الثاني الذي شاء أن ينشر العلوم الإسلامية ، وكان على صلة بحكام الشرق وولاته ، واستطاع أن يجمع ثروة طائلة من المؤلفات العربية . ودعا إليه كبار المترجمين وفي مقدمتهم ميشيل اسكوت (١٢٣٥ م) ، تلك الشخصية شبه الأسطورية التي كانت مملوءة نشاطا وحركة ، والتي عزي إليها عدد غير قليل من الترجمات ، وما أشبهه بجيرار الكريموني . فوزع العمل على التلاميذ والأعوان ، وتابع نشاطهم وراجع إنتاجهم . وقد حرص الإمبراطور فردريك على أن يوزع ترجماته على الجامعات الأوربية ، رغبة في نشر العلم ، وبدافع من منافسة البابا في الغالب .

وبعد الترجمة يجيء البحث والتمحيص ، وقد حظيت بعض الكتب الطبية العربية في أوربا ببحوث ودراسات متلاحقة ، وكان «كتاب القانون» لابن سينا أعظمها

حظا . فبلغ مكانة لا يدنو منها إلا كتب أبقراط وجالينوس ، وأقر البابا كليمنت الخامس (١٣١٩ م) أن يمتحن الطلبة إجباريا فى «قانون» ابن سينا ، وفى «المنصورى» للرازى للحصول على إجازة الطب . وتنافست الجامعات الأوربية فى الدراسات الطبية ، فعولت جامعة مونبلييه على كتاب «القانون» حتى منتصف القرن السابع عشر ، وحذت حذوها جامعة فيينا وجامعة فرنكفورت ، وتبنت جامعة بولونيا آراء ابن زهر . وسبق أن أشرنا إلى أن جامعة بادوا عرضت فى القرن السادس عشر لموضوع الدورة الدموية ، على نحو شبيه بما انتهى اليه ابن النفيس . واستمرت الفرماكولوجيا العربية سائدة فى أوربا حتى القرن التاسع عشر . وطبعت أجزاء من مفردات ابن البيطار بكريمونا عام (١٧٥٨ م) .

وفى وسعنا أن نقرر أن الطب الأوربى مدين للطب العربى فى القرون الوسطى وعصر النهضة ، بل فى التاريخ الحديث ، ولم يتردد منصفو علماء الغرب فى تقرير ذلك ، ونشير فقط إلى ما قرره سارتون ، وهو من أكبر مؤرخى العلوم المعاصرين فى أوربا وامريكا ، ويقول : «إنه لعمل عظيم أن ينقل العرب إلينا كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ، على أنهم لم يكتفوا بهذا ، بل غذوها وسموا بها ، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية قرونا عديدة» .

* * *

خاتمـــة

فى ضوء ما تقدم نلاحظ أن الطب العربى خطا خلال أربعة قرون أو يزيد خطوات فسيحة ، ووصل إلى درجة مرموقة ، وهو دون نزاع أدق وأشمل من الطب القديم والمتوسط ، وقد مهد للطب الحديث ، وسبقه إلى بعض ما يباهى به . ومن الظلم أن يقاس بأقيسة الطب المعاصر الذى تهيأت له أسباب ووسائل لم تتهيأ لأطباء العرب ، على أن الطب المعاصر نفسه فى تطور مستمر ، وطب القرن العشرين يسمو دون نزاع على طب القرن التاسع عشر ، وفى كل يوم يكاد البحث الطبى يأتى بجديد ، ولم يخرج الطب العربى عن سنة هذا التطور بحال .

وقد أشرنا إلى أن هذا الطب احتفظ بتراث اليونان ، وهذا نفسه عمل جليل . ولكنه لم يقف عند مجرد حفظه ونقله ، بل عدله وصححه ، وأضاف إليه ما لم تضفه ثقافة أخرى فى التاريخ القديم والمتوسط . فكشف عن أدواء لم تكن معروفة ، وتفنن فى وسائل الدواء والعلاج ، وخطا فى الجراحة خطوات لم تكن يسيرة فى القرون الوسطى ، وبقيت الجراحة فى الغرب عالة عليه عدة قرون ، واستحدث أدوات جراحية لم تكن معروفة من قبل . وسما بالطب الأكلينيكى إلى درجة يفيد منها أطباء اليوم ، وما أجدرهم أن يقفوا عليه . وتوسع ما أمكن فى الكشف عن الحشائش والعقاقير الطبية ، وتوفر له منها زاد كبير . وعنى بالتمريض ، وقدم أمثلة رائعة فى تنظيم المستشفيات وإدارتها والإشراف عليها .

تدارك العرب على أبقراط وجالينوس مالم يسبق إليه أحد ، وطبيب كالرازى نقد أبقراط وهذبه أكثر مما صنع جالينوس . وإذا كان أطباء العرب قد سلموا بمبادئ لا نسلم بها اليوم ، ولم يتخلصوا تماما من نظرية الأخلاط اليونانية فإنهم أفسحوا للتجربة مجالا انتهى بالقضاء على هذه النظرية . ولا يزال قدر من مؤلفات الطب العربية يعد إلى اليوم بين أمهات الكتب الطبية ، وهو مخطوط . وما أحوجه أن يبرز إلى النور .

مـــراجع

١ ـ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ، دار الفكر ، بيروت ١٩٥٧

٢ ـ ابن جلجل ، طبقات الأطباء ، القاهرة ١٩٥٥ .

٣ ـ بول غليونجى ، قطوف من تاريخ الطب ، القاهرة ١٩٧٩ .

٤ ـ جمال الدين القفطى ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣

٥ ـ محمد كامل حسين ، موجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ١٩٧٨ .

٦ ـ محمد كامل حسين ، فى الطب والاقرباذين ، أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية القاهرة ١٩٧٠ .

٧ ـ Browne, 1921. Arabian Medicine Cam bridge, Cambridge.

٨ ـ Meyerhof. Science and Medicine in Legacy of Islam. 1947.